

الجليد... يذوب: بين موسكو والقاهرة!

وقال له أيزنها ورمين تليفون ملعب الجولف: أوكي! وبعدها تغيرت معالم منطقة الشرق الأوسط

لا بد أن هناك أسبابا دولية أدت إلى أن الاتحاد السوفيتي قد اتجه إلينا.... ووافق على أن يمدنا بالسلاح، وكانت هذه نقطة تغير ضخمة بيننا وبينه، وبين السوفيت والمنطقة كلها...

ربما نبههم شو إن لاي رئيس الوزراء الصيني في ذلك الوقت، ويومها كانت العلاقات بين الصين الشيوعية الدولة الثائرة الجديدة وبين الاتحاد السوفيتي، تسمح بأن يكون للصين رأي مسموع عند الروس... ربما...

كان ذلك في ربيع سنة 1955 عندما تنادى زعماء العالم الجديد أو العالم الثالث، بضرورة أن يتقاربوا ويتماسكوا .. ويكون لهم رأي ز.. وتكون لهم قوة في مواجهة المعسكرين الأعظمين.. الأمريكان والغرب من ناحية والمعسكر السوفيتي الشيوعي من ناحية أخرى.

وكان يرأس العالم الثالث البانديت نهرو والرئيس سوكارنو والرئيس جمال عبد الناصر... ثم انضم إليهم شو إن لاي رئيس وزراء الصين التي نجحت ثورتها سنة 1949.

وانفقوا على عقد أول مؤتمر لهم في باندونج بأندونيسيا سنة 1955. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أصبح لهم فيها وجود على خريطة الجغرافيا السياسية...

وكانت الدعوة إلى المؤتمر والسفر إليه قد اتخذت طابعا إنسانيا رومانسيا لطيفا.. فقد سافر جمال عبد الناصر إلى الهند وسافر معه نهرو، وسافر الاثنان إلى بورما واصطحبها معهما رئيس وزرائها، وفي بورما التقوا بشو إن لاي، وسافروا معا في محبة وأخوة إلى جاكرتا في إندونيسيا ليرافقهم جميعا سوكارنو.

وكان لجمال عبد الناصر دور بارز في هذا المؤتمر، وفي المؤتمر أعلن ما سمي بعد ذلك بسياسة الحياد الإيجابي، أي ضرورة الوقوف على الحياد بين المعسكرين... وليس حياد المتفرجين.... كالحياد السويسري... وإنما هو حياد له دور في الموافقة والاعتراض على ما يقوم به المعسكران الآخران. وكان نهرو بنظرية البانشاسيلا " أي المبادئ الخمسة" حريصا على هذه السياسة في جنوب شرقي آسيا.... ولكن مؤتمر باندونج قام بتوسيع وتعميم معنى

الحياد الإيجابي على القارات الثلاث: آسيا وأفريقيا ثم أوروبا التي جاء منها تيتو... وبعد ذلك شمل أمريكا اللاتينية أيضا.

وعلى الرغم من أن العالم الثالث هذا يضم أغلبية سكان العالم فإنه لا يملك الثروة الحقيقية... فهو يملك المواد الخام أو الموارد والمناجم وحقول البترول، ولكن لا يملك تصنيعها.. وهذا هو الأهم، فالغرب يملك القدرة على التصنيع وعلى الشراء وعلى التسويق وعلى رفع وخفض الأسعار.

وفي هذا المؤتمر اقترب شواين لاي من جمال عبد الناصر، وعرفه جيدا، وكبر في عينه.

وكان شواين لاي هذا صديقا صدوقا لنهرو.. وإن كان بعد ذلك قد طعنه حتى الموت... وهذا شيء غريب، ولكن ليس غريبا على الشيوعيين.. فالغدر والعنف من أهم معالم السلوك الشيوعي في السياسية العامة والعلاقات الخاصة... فهذا الرجل شواين لاي هو المسئول عن موت نهرو... فالصين هاجمت الهند، وهذا الرجل قد أجهز على نهرو حتى أنهى وجوده تماما.

ولكن شواين لاي عرف جمال عبد الناصر جيدا، وعندما وصل إلى بكين، طلب الكرملين... وقال لهم: إن هناك نجما صاعدا... هذا النجم هو عبد الناصر... فخذوه إلى سمائمكم لعله أن يزداد تألقا، والوسيلة هي تعطوه السلاح.

فقد شكاه جمال عبد الناصر من الحصار الذي أحكمه الأمريكان والإنجليز عليه، فجيش مصر بلا سلاح.. وهو وضع صعب عليه، وعلى بلده وعلى جيشه.

وفي ذلك الوقت كان ستالين قد توفي من سنتين، أي اختفى الرجل المتمزمت جدا، الشيوعي جدا، المتسلط جدا، وظهرت قيادة حزبية جديدة في روسيا. واختفى خليفة ستالين: مالنكوف. وظهر خروشوف. الذي أعلن في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي أن ستالين هذا سفاح وخائن... وأنه يجب اقتلعه من التاريخ الشيوعي، ونزع تماثيله من كل ميدان، وشطب اسمه من كل كتاب. وقد حدث ذلك كله بالحرف الواحد، وهذا سلوك شيوعي عادي جدا... فانتقال السلطة عند الشيوعيين لا يتم إلا بالعنف: منذ أيام لينين حتى اليوم....

ستالين نزعه.. قلعوه... مسحوا به شوارع روسيا وشوارع كل الدول الشيوعية الأخرى، ولقى خروشوف نفس المصير أيضا... بل إن وزير خارجية روسيا على أيام خروشوف كان اسمه شيبيلوف، ولا أعرف أين ذهب الآن. لا بد أنه ناظر محطة أو حارس دورة مياه في

سيبريا.. وهذا طبيعي.... وهذه هي نهاية كل حاكم في روسيا إذا اختلف مع الذي هو أقوى منه... بل إنهم بعد الحرب كان لديهم قائد عظيم جدا هو زوكوف.. هذا الرجل، بالمقاييس العسكرية، يعتبر أعظم من إيزنهاور ومنتجومي، لأنه قد اكتسح أوربا الشرقية حتى ألمانيا الغربية وأبواب برلين. هذا الرجل فوجئ وهو في زيارة ليوغوسلافيا بأنه مطرود، وعليه أن يخلع ملابسه وأن يسلم نياشينه، وأصبح لا شيء . ولما مات وجدوه جالسا على دكة خشبية في إحدى الحدائق ... فسقط ميتا كقطعة خشب كانت تجلس على قطعة خشب، وتكوم على الأرض إنسان كان عظيما... ولكن لا عظمة ولا قيم ولا إنسانية عند الشيوعيين!.

ولكن إذا نظرنا إلى ما يحدث في الدول الغربية نجد أن التغيير أو التبدل ديمقراطي.. ففي أمريكا أرغموا نيكسون على الاستقالة... فاستقال ببساطة ، وبعد ذلك يجيء نائبه ويحلف اليمين ويصبح خلفا له، وكذلك جونسون... أتوا له بقاض، وكان القاضي سيده. حلف أمامها اليمين وبعدها بلحظة واحدة أصبح له رئيسا للدولة ويمسك في يديه كل مفاتيح القنابل النووية...

ولم أكن أعرف ما الذي يجري لأي مسئول سوفيتي يغضبون عليه إلا من صديق وزير الدفاع جريتشكو الذي توفى أخيرا... فالوزير في روسيا عنده شقة وفيلات على البحيرات وسيارات.. فإذا غضبوا عليه سحبوا كل شيء من تحته : السيارة والسرير.. ثم المقعد الذي يجلس عليه فإذا هو جثة هامدة على الأرض دون أن يهتز عصب واحد لأي إنسان. فالوزير قد كان ثم هان... ثم أختفى!

أما شبي洛夫 هذا فقد كان وزيرا الخارجية روسيا وكان أنيقا... أنه أول روسي أراه يضع المشط في جيبه ويخرجه كلما ظهرت كاميرا في يد أحد المصورين. وقد قابلت هذا الرجل في الحفلة التي أقامتها السفارة السوفيتية في القاهرة... وكان صديقا، وكان يعرفنا جميعا... ويجب أن نسمعنا وأن يسأل عنا.. لأنه يريد أن يعرف أو يساعد... أو لعله أراد أن يوجه بلاده إلى ناحية تنفعهم في علاقاتهم معنا... أو في علاقة السوفيت مع الثورة الجديدة في مصر أو في المنطقة كلها ...

ويقابل شبي洛夫 هذا وزير خارجية أمريكا: دالاس، وهذا الرجل الأمريكي قريب الشبه بستالين.. أنه هو أيضا متعصب متزمت متشدد ومتسلط أيضا، ويريد أن يقدم لنا المساعدة بشروط... وهذه الشروط هي أن يسيطروا علينا.

وكان من رأي دالاس أن نظرية الحياد الإيجابي نظرية لا أخلاقية. لأن الأخلاق تقول : إن الإنسان إما أن يكون أمريكيا أو شيوعيا.... و لا يوجد شيء وسط...

أو بعبارة أخرى.... إن الحياد الإيجابي هو نوع من السفالة السياسية!

وهذا رأي غريب... كأن من المفروض ألا يكون الإنسان وطنيا، محبا لبلده حريصا على مصالحه .. مع أن من الممكن ، بل طبيعي جدا، أن أكون مصريا وطنيا، وعربيا... أي مصريا وعندني أمنيات قومية، أريد أن أحقق لمصر كرامتها ورخاءها، وفي نفس الوقت أحرص على سلامة العرب ووحدتهم وعزة الجميع، إننا لا نرى في ذلك أي تناقض، ولا أية سفالة سياسية.. بل من السفالة وليس من السياسة ألا يكون الإنسان وطنيا قوميا في وقت واحد..

ولكن الأمريكان كالروس تماما: يضيقون بكل ما هو وطني وما هو قومي.

ولهذا السبب اتخذ دالاس هذا الموقف العدائي من أول لحظة.

وكانت لدالاس نظرية في ذلك الوقت اسمها: حافة الهاوية... أي دفع حتى يشتعل. وهنا فقط يستطيع أن يفعل شيئا ... أو ينهار الموقف تماما، فلا يجد نفسه في حاجة إلى أن يعمل أي شيء، ودالاس طبعاً يريد أن يدفعنا إلى الهاوية أو إلى حافتها فإذا سقطنا كان ذلك بين ذراعيه أو تحت قدميه، ولكن دالاس لم يفهمنا..

فهذه الهاوية لا تهمننا... لأننا لا يمكن أن نخسر أكثر مما خسرناه، ولا يمكن أن نصل إلى أدنى مما وصلنا إليه...

فنحن في جميع الأحوال لن نفقد شيئا، ولذلك لا تهمننا نظرية حافة الهاوية!

وكان دالاس هذا وزير خارجية إيزنهاور.... وكان إيزنهاور يعيش على أمجاد الحرب العالمية الثانية وانتصاراته فيها، ولما رأس الحكومة الأمريكية، كان ذلك تكريما له، وثمره لأعماله العسكرية المشهورة، وهو رجل يلعب الجولف معظم الوقت، وبين الحين والحين تجيء له مكالمة تليفونية.. فيتترك أرض الجولف ويسمح عرقه والناس من حوله تحييه ويمسك سماعة التليفون ويقول: أوكى... أولا يرد ويقفل السكة. ويكون أفعاله دليلا على الرفض.

ومن ضمن المكالمات العادية.... أن تحدث إليه دالاس وسأله في حكاية مر، وكان من رأي إيزنهاور لدالاس: أوكى... استمر!

أما ما هذا الذي وافق عليه وطلب من دالاس أن يستمر فيه فهو... أن دالاس عندما قال له: إن مصر دولة مفلسة وليست قادرة على تمويل السد العالي.. ومن رأيي ألا نشترك في ذلك... كان رد إيزنهاور أنه لا داعي لذلك... وانتهت مكالمة عابرة أدت إلى تغيير معالم الشرق الأوسط كله!!!

فأمريكا إذن قد رفضت أن تمدنا بالسلاح. ورفضت أن تعيننا على بناء السد العالي.... وأعلنت في بيان دالاس الشهير أننا دولة مفلسة.

وقبل ذلك اشترطت لكي تساعدنا أن تشرف على استخدام السلاح حتى لا نحارب دولة صديقة... إسرائيل طبعاً، ثم إنها أخيراً لن تشارك في تمويل السد العالي.

طبعاً، ثم إنها أخيراً لن تشارك في تمويل السد العالي.

وأعلنت أيضاً بأشكال مختلفة أن الوضع كله يحتاج إلى تغيير... أي مطلوب منا أن نغير الحكم وشكله وفي هذه الحالة أو بعدها تساعدنا أمريكا!

وأصبح معروفًا أن دالاس قد أوفد هندرسون ليوجه إنذار لجمال عبد الناصر، وكان هندرسون في تركيا.. وتحفظ جمال عبد الناصر لطرد هذا المبعوث الأمريكي.

فنحن لا نهاب أمريكا ، ولا يمكن أن تدفعنا أمريكا إلى أسوأ مما نحن فيه، ولكن فجأةً تغير الوضع. وتلقى هندرسون تعليمات بأن يكون ألطف وأرق ، وقابل جمال عبد الناصر، وسأله جمال عبد الناصر عن الإنذار...

فأجاب الرجل : أنه لا إنذار!

وإنما جاء هندرسون يطلب من مصر أن تلغى صفقة الأسلحة مع روسيا أو تؤجلها!

فقد حدث فجأةً أن أعلن الروس في سبتمبر 1955 موافقتهم على إعطاء صفقة سلاح لمصر من روسيا ومن تشكوسلواكيا بموافقة موسكو... وكان ذلك حدثاً مدويًا.

فقد جاءنا السفير السوفيتي في ذلك الوقت وقال إن لديه تعليمات من حكومته بالموافقة على إمداد مصر بالسلاح... أي بكسر احتكار بريطانيا وأمريكا للسلاح.

واتسعت المعركة بين مصر والولايات المتحدة وبريطانيا... فقد اتجهنا إلى المعسكر الاشتراكي نطلب السلاح، وقد أعلن الروس موافقتهم على ذلك.

وفي ذلك الوقت... في يوليو 1956 انتخب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية- أول رئيس للجمهورية.

بالانتخاب -لأن محمد نجيب عين رئيسا للجمهورية بقرار من مجلس قيادة الثورة سنة 1953.

ومضينا بعد ذلك نواصل دراسة مشروع السد العالي، والسد العالي بمشاريعه وهندسته مختلف تماما عن سد أسوان الذي ليس إلا جدارا متواضعا إذا ما قورن بهذا الجبل : السد العالي، فالسد العالي يقوي على مواجهة القنابل الذرية....

وقد نوقشت كثيرا فكرة ضرب السد العالي بالقنابل الذرية، ويؤكد الخبراء العالميون أنه يستطيعون أن يتحمل ذلك.

ومن المناسب أن أذكر أن عددا من كتاب الغرب ومن الكتاب اليهود قد طرأت عليهم هذه الفكرة عندما رأوا السد العالي.

فالكاتب الفرنسي أندريه مالرو وزير الثقافة السابق قد ذكر في كتابه المشهور "الذكريات المضادة" أن القنابل الذرية إذا أصابت السد العالي فسوف تغرق مصر كلها!

كما أن كاتباً يهودياً ألمانيا اسمه حايبم ميخائيل قد ألف رواية بعنوان "مياه أسوان" تخيل فيها انهيار السد العالي ونسفه بالقنابل الذرية والألغام وغرق مصر....

وقال: في هذه الحالة ننتقم من مصر... فهي التي قالت لليهود في أغانيها : في البحر حنـدـفـنـكـم.. ولكن في هذه الحالة، سوف تأتي للمصريين بالبحر ولن نـدـفـنـهم، وإنما سننقذ المصريين كما أنقذ نوح البشرية.

وأحدث رواية ظهرت عنوانها "الخط 34 شرقاً" أي شرق السويس من تأليف الفريد كوبل.. وهو قد فكر أيضا في ضرب السد العالي وإغراق مصر...

بل إن مؤلف رواية "مياه أسوان" كان أكثرهم صراحة. فهو الذي قال : يجب إغراق مصر قبل أن يستعد أنور السادات... الخ..

وفي ذلك الوقت جاءنا مهندس يوناني اسمه دانيوس... هذا الرجل قد درس مشروع السد العالي، ودرس طبيعة أرض مصر كلها.

وجاء مهندسوننا أيضا ودرسوا المشروع جيدا... في نفس الوقت الذي قيل فيه عن هذا الرجل اليوناني إنه مجنون، وهي صفة يشترك مع كل أصحاب الأفكار الجديدة الجريئة في التاريخ!

وانتهينا من دراسة المشروع في سنة 1956، وكل ما نحتاج إليه هو التمويل، وما نحتاج إليه حوالي 400 مليون جنيه ، ولا بد أن يساعدنا البنك الدولي بأنه إذا ساهمت أمريكا فسوف يساهم مباشرة، وإنجلترا قالت إذا اشتركت أمريكا فسوف نشترك أيضا.

الموقف بوضوح هو : إذا أرادت أمريكا انفتح الطريق أمامنا في كل شيء.

أما مساهمة إنجلترا في هذا المشروع فقد أعلنت أنها على استعداد لدفع خمسة ملايين جنيه!

وهو مبلغ قاله جدا... ولمن إنجلترا تريد أن تساهم أي تحشر أنفسها في المشروع أو تضع قدمها في المنطقة بصورة أو أخرى، وهذا يذكرنا بما فعله دزرائيلي عندما دخل بكل قوته في شراء أسهم قناة السويس عند إنشائها وافتتاحها!

وفي ذلك الوقت كنا نتجه إلى أمريكا، وكان دالاس يحاور ويناور... تارة يقول إنه يدرس، وتارة يطلب التأييد والصبر... وأصبح واضحا لدينا أنه يكسب الوقت ويضيعه علينا.. أنه يستعد لشيء لم نعرفه بوضوح، لكن لا نستبعد وقوعه، حتى كان يوم 19 يوليو سنة 1956 وأصدر بيانه الشهير الذي شهر فيه بمصر معلنا إفلاسها وعجزها عن بناء السد، وامتناع أمريكا عن المساهمة بشيء.. وبالتالي: البنك الدولي وبريطانيا!

وفجأة - وهذا شيء غريب وعجيب - التقط الاتحاد السوفيتي الكرة، وأعلن موافقته على تمويل وبناء السد العالي. وأقول: غريب وعجيب، لأن الروس عادة ليس عندهم رد فعل سريع. وإنما رد الفعل عندهم بطيء جدا.

ولا يتخذون أي قرار إلا بعد مناقشات ومشاورات وقرارات على كل المستويات، وتردد وتشكك... ولكنهم هذه المرة قروا بسرعة...

وتجربتي الطويلة معهم ، والتي لا تزال مستمرة، تؤكد لي أنهم ينتظرون عادة بالسنوات دون أن يفعلوا شيئا. وقد شكوا جمال عبد الناصر كثيرا من هذا التباطؤ في الفعل ورد الفعل، وأنا قد عايشت هذه التجارب المريرة... فلم يحدث شيء كهذا الذي فعله الروس هذه المرة والمرة السابقة.

أولا: عندما وافقوا على مدنا بالسلاح.. هكذا فجأة.

ثانياً: عندما أخبروني في الحفلة التي أقامتها السفارة السوفيتية أن التعليمات الواردة من موسكو تعلن أن الروس وافقوا على تمويل السد وبنائه . شىء غريب لم يتكرر بعد ذلك، ولن يتكرر .

وكانت فرحتنا الكبرى، وكان ذلك سندا عظيماً لثورتنا، وفي احتفالات 23 يوليو اشترك معنا وزير خارجية روسيا شيبيلوف والقائد البريطاني الذي أتم معنا اتفاقية الجلاء، وفي حفلة أم كلثوم كان لكل شىء طعم جديد ... ولكن القائد الإنجليزي قد سمع بأذنيه كل الشتائم في بريطانيا .. فأغانينا كلها طويلة اللسان، وهذا طبيعي أن يهاجم الفن الاستعمار والمستعمرين .

وتصاعدت المشاعر الوطنية، وزادت المسافة اتساعاً بيننا وبين أمريكا، وتقاربت المسافة بيننا وبين روسيا...

فما كان من جمال عبد الناصر إلا أن أعلن يوم 26 يوليو في الإسكندرية "تأميم قناة السويس".

هنا أحس دالاس بأنه قد طعن على مرأى من العالم كله...

وكان دالاس هذا يصف عبد الناصر بأنه "صداع" المنطقه.. فإذا ذهب إلى مكتبه يسأل : ألا توجد أخبار عن هذا الصداع؟

وكان الرد على موقف مصر هو ما حدث في 30 أكتوبر

من أوراق "الرئيس السادات